الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

الميزان الكونيّ في آية

الحلّ الجذري لمشكلات العالم

زاحم ساحات الجهل والباطل، يرجى نشر ما تقرأ من علم وحق، ولا تصمت صوتك في الحق

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA LONDON - UK

AMIEF
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في عالم يعجّ بالصراعات والتحدّيات، وتتنامى فيه مشكلات الظلم والفساد والعدوان، تأتي آية عظيمة من كتاب اللّٰه لتقدّم منهجاً شاملاً ومتكاملاً لإصلاح الفرد والمجتمع والعالم أجمع، فقد أجمع علماء التفسير على أنّ سورة النحل الآية (90) آية جامعة لمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال...

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

(النحل:90)

فهذه الآية الكريمة تحمل في طيّاتها دستوراً إلهياًّ شاملاً للحياة الإنسانيّة، يتضمّن الأسس الثلاثة للبناء الحضاري السليم، والمحاذير الثلاثة التي تهدم أركان المجتمعات، فهي آية الميزان الكونيّ التي تقدّم خارطة طريق واضحة نحو عالم أكثر عدالة وسلاماً.

فقد وردت الأسس الثلاثة وهي العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، لتؤسّس للاستقرار المجتمعيّ وتماسك أفراد المجتمع وسكينتهم، فبالعدل تظهر منظومة شاملة تشمل العدل مع النفس والعدل مع الآخرين والعدل في التّعامل مع الطبيعة، فالعدل ميزان يحفظ حقوق الجميع دون تمييز أو محاباة، وغياب العدل يؤدّي إلى نشوء الصراعات والحروب، ويعمل على خلق فجوة شاسعة بين الأغنياء والفقراء، وتوليد الاستبداد والقمع، وسيادة التمييز والعنصرية وازدواجيّة المعايير في التعامل، ووجود العدل هو الترياق الوحيد القادر على حلّ هذه المشكلات من جذورها، فالعدل الإلهيّ يتجاوز المفهوم البشري المحدود، فهو يشمل العدل في التوزيع والعدل في الحكم والعدل في المعاملة، فهو نظام متكامل يضمن لكلّ فرد حقوقه الأساسيّة في الحياة والكرامة والحرية والتنمية إذا ما تمّ اتّباعه، وفي تطبيق منظومة العدل لن تكون هناك استباحة لحقوق الآخرين، سواء أكانت تلك الاستباحة من الأفراد فيما بينهم أو حتّى دولاً...

وبالإحسان تسمو الروح الإنسانيّة، فإنْ كان العدل البشريّ يمثّل الحدّ الأدنى المطلوب في التّعاملات الإنسانيّة، فإنّ الإحسان هو القمّة والكمال، فالإحسان هو أنْ تعطي أكثر ممّا تأخذ، وأنْ تعفو عمن ظلمك، وأنْ تحسن إلى من أساء إليك، والإحسان له مستويات عدّة؛ منها الإحسان في العبادة بأنْ تعبد اللّه كأنّك تراه، والإحسان في المعاملة بأنْ تعامل الناس بخلق حسن، والإحسان في العمل بأنْ تتقنه وتؤدّيه على أكمل وجه، فضلاً عن كون انتشار الإحسان في المجتمعات يؤدّي لارتفاع مستويات الثّقة والتّعاون، وانخفاض معدّلات الجريمة والفساد، وازدهار الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة، فالإحسان يخلق دورة إيجابيّة من الخير تشمل المجتمع بأسره، ويدخل من باب الإحسان أنْ تعي حدود المسامحة مع الآخرين، فليس من الإحسان مسامحتك وتهاونك مع من ظلمك، لكون هذا التسامح يعدّ إشارة خضراء للظالم ليتمادى في ظلمه دون خوف أو حسيب أو رقيب..

أمّا إيتاء ذي القربى فيعكس التماسك الاجتماعي، فالأسرة هي اللبنة الأساسيّة في بناء المجتمع، وإيتاء ذي القربى يعني الاهتمام بالأقارب وصلة الأرحام والحفاظ على روابط القرابة، وهذا المبدأ يؤسّس لشبكة أمان اجتماعيّة طبيعيّة تحمي الفرد من التشرّد والضياع، وفي عصر العولمة والتفكّك الأسري، أصبح هذا المبدأ أكثر أهميّة من أيّ وقت مضى، فالمجتمعات التي تحافظ على روابط القرابة والعائلة تكون أكثر استقراراً وتماسكاً، وأقلّ عرضة للمشكلات الاجتماعيّة كالجريمة والانحراف، كما أنّ إيتاء ذي القربى لا يقتصر على الجانب الماديّ، بل يشمل العطف والحنان والدعم النفسي والمعنوي، وهو يخلق شعوراً بالانتماء والهويّة يحمي الفرد من الاغتراب والوحدة في عالم متسارع التغيير.

وعلى الطرف المغاير، فقد وردت ثلاثيّة المحاذير؛ الفحشاء والمنكر والبغي، وهي عناصر خطرة إنْ وجدت في مجتمع ما فإنّها مدمّرة لحضارته وتقدّمه، فالفحشاء تعمل على تدمير القيم الأخلاقيّة، وتشمل كلّ ما هو قبيح ومشين في القول والفعل، وهي تبدأ بانحراف الفرد، ومن ثمّ تنتشر لتفسد المجتمع بأكمله، وعندما تسود الفحشاء في مجتمع ما، تنهار القيم الأخلاقيّة وينتشر الفساد في مناحي الحياة جميعها، وفي عالمنا المعاصر، نشهد كيف أنّ انتشار الفحشاء في المجتمعات من خلال وسائل الإعلام وميليشيات التواصل الاجتماعي اللامسؤول، على سبيل المثال، يؤثّر سلباً في الأجيال الناشئة، ويؤدّي إلى تفكّك الأسر وانهيار المنظومة الأخلاقيّة، لذلك فإنّ محاربة الفحشاء ليست قضيّة دينيّة وحسب، بل هي ضرورة إنسانيّة اجتماعيّة للحفاظ على سلامة المجتمع وترابط وشائجه.

وهناك المنكر، الذي يشتمل على كلّ ما تنكره الفطرة السليمة والضمير الإنساني، من الظلم والفساد والكذب وكافّة أشكال الانحراف عن الحقّ والصواب، فالمنكر يتدرّج من المستوى الفرديّ إلى المستوى المجتمعيّ والدّوليّ، وفي المجتمعات التي يسود فيها المنكر، نجد أنّ الثقة تتآكل والعلاقات الاجتماعية تنهار، فالفساد الإداري والمالي، وتزييف الحقائق التي تقدّم من خلال المنصّات الإعلاميّة، والخداع في التجارة، كلّها تعدّ من أشكال المنكر التي تدمّر النسيج الاجتماعيّ وتعيق التقدّم والازدهار.

وآخر العناصر المدمّرة البغي، وهو الأخطر في هذا الثالوث، فهو يمثّل العدوان والظلم والتجاوز على حقوق الآخرين واستباحة حرماتهم، وبدايته تكبّر واستعلاء، ومن ثمّ يتطوّر إلى العدوان والاعتداء والطغيان غير المبرّر، وهو السبب الرئيسي وراء الحروب والصراعات في العالم، كما أنّه لا يقتصر على الحروب، بل يشمل البغي الاقتصادي المتمثّل باستغلال الشعوب، والبغي البيئي القائم على تدمير الطبيعة، والبغي الثقافيّ من خلال فرض الهيمنة الحضارية، لذلك فإنّ محاربة البغي واستئصاله من جسد الأمّة يعدّ أولويّة لتقوية مفهوم الأمن الوطنيّ، وضرورة لتحقيق السّلام العالمي والعدالة الدوليّة..

وبعد العرض الشّامل للعناصر المدمّرة للمجتمعات والبانية لها، فإنّه قد وجب التنويه لكون هذه العناصر ليست مجرّد سرد نظريّ، أو إنسجام معجز في الآيات، بل هي منهجيّة حياة تطبّق على المستوى الفرديّ والمجتمعيّ والدوليّ على حدّ سواء، فالفرد يمكنه أنْ يبدأ ببناء ذاته بالتربية الذاتية والتزكية النفسية، وهو مطالب بأنْ يحقّق العدل في تعامله مع نفسه أولاً، بإعطاء كلّ جانب من جوانب شخصيّته حقّه، وتجنّب الإفراط والتفريط في أموره جميعها، ويمكنه من خلال سعيه للتميّز والإتقان في كلّ عمل أنْ يحقّق الإحسان لنفسه ولغيره، من خلال التّعامل مع الآخرين بأخلاق حسنة، والمساهمة الإيجابيّة في المجتمع، كما ويمكنه تطبيق صلة الرحم وإيتاء ذي القربى من خلال الحفاظ على العلاقات الأسرية وتقوية الروابط مع الأقارب.

أمّا المجتمع فيمكنه تطبيق هذه المبادئ بإقامة مؤسّسات عادلة تضمن حقوق الجميع، وتشجّع ثقافة الإحسان والتطوّع، وتقوّي النسيج الاجتماعي من خلال دعم الأسر والمجتمعات المحليّة، ويمكنه السعي لمحاربة الفحشاء والمنكر والبغي من خلال تضافر جهود مؤسّسات المجتمع بأكملها من تعليم وإعلام وثقافة ودين، فلا بدّ من خلق بيئة اجتماعيّة تشجّع على

الفضيلة وتردع عن الرذيلة.

وعلى المستوى الدوليّ، فإنّ هذه المبادئ تقدّم أساساً قوياً للعلاقات الدوليّة العادلة، فالعدل يعني احترام سيادة الدول وحقوق الشعوب، والإحسان يعني التعاون الدوليّ والمساعدات الإنسانيّة، وإيتاء ذي القربى يعني تقوية الروابط الإقليميّة والحضاريّة، ومحاربة البغي تعني رفض الهيمنة والاستعمار والعدوان والطغيان، وإقامة نظام دولي عادل يضمن حقوق الشعوب كافّة في العيش بحرية وكرامة وتنمية مستدامة.

ولا تزال هذه الآية تحمل الكثير في تفسير مضمونها، فهي تتضمن مختلف الأبعاد الإنسانيّة التي تشكّل منظومة حياتيّة بأكملها؛

فالبعد القيميّ يظهر في الآية من خلال تقديمها لمنهجٍ تربويٍّ متكاملٍ يربط بين القيم النظرية والممارسة العملية، فالتربية على العدل تعني تعليم الأطفال والشباب مبادئ الإنصاف والمساواة، والتربية على الإحسان تعني غرس روح العطاء والبذل في نفوسهم، والتربية على تجنّب الفحشاء والمنكر والبغي تتطلّب بناء الضمير الأخلاقي وتقوية الوازع الديني والأخلاقي، وهذا يحتاج إلى بيئة تربوية صحيّة في البيت والمدرسة والمجتمع.

والبعد النفسي والاجتماعيّ، يتجلّى في كون تطبيق هذه المبادئ يحسّن من الصّحة النفسيّة والروابط الاجتماعيّة للأفراد والمجتمعات على حدّ سواء، فالعدل يخلق شعوراً بالأمان والاستقرار، والإحسان يولّد السعادة والرضا، وصلة الأرحام تقوّي الشّعور بالانتماء والدعم، وعلى النقيض، فإنّ انتشار الفحشاء والمنكر والبغي كلّها تؤدي إلى مشكلات نفسيّة واجتماعيّة كالقلق والاكتئاب والعدوانيّة، لذلك، فإنّ تطبيق هذه الآية يمثّل وقاية وعلاجاً للكثير من المشكلات النفسية والاجتماعية.

وهناك البعد الرّوحانيّ والإيمانيّ، الذي يظهر بتقوية الصلة باللّه تعالى، فهذه الآية تبدأ بتأكيد أنّ هذه الأوامر والنواهي من اللّه تعالى، ممّا يعطيها قدسيّة وأهميّة خاصّة، فالالتزام بها ليس مجرّد قواعد اجتماعيّة، بل هو طاعة للّه وتحقيق للعبوديّة الحقّة، والبعد الروحانيّ يعطي هذه المبادئ قوّة دافعة من الداخل، فالمؤمن يطبّقها لا خوفاً من القانون فحسب، بل حبّاً في اللّه وطمعاً في رضاه، وهذا يجعل الالتزام أكثر عمقاً واستمراريّة.

وآخرها البعد الوعظيّ، القائم على ما اختتمت به هذه الآية بالتذكير والوعظ، ممّا يؤكّد أنّ الهدف من هذه الأوامر والنواهي هو إيقاظ الضمير الإنسانيّ وتذكير الإنسان بمسؤولياته وواجباته، والتذكّر هنا ليس استحضاراً للذاكرة، إنّما هو يقظة روحيّة وأخلاقيّة تؤدي إلى تغيير السّلوك والتطبيق العمليّ، فهو دعوة للتأمّل العميق في هذه المبادئ وأثرها في الحياة الإنسانيّة.

وختاماً،

ففي قول اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:90) تقديم لحلّ جذريّ وشامل لمشكلات العالم المعاصر، فهي تضع الأسس الصحيحة للبناء الحضاريّ وتحذّر من المخاطر التي تهدّد المجتمعات الإنسانيّة، وتطبيق هذه المبادئ على المستويات الفرديّة والاجتماعيّة والدوليّة يمكن أنّ يحقّق السّلام والعدالة والازدهار للعالم أجمع، ولتحقيق هذا الهدف النبيل، نحتاج إلى جهود متضافرة من أفراد المجتمع ومؤسّساته بأكملها، فالتربية والتعليم يلعبان دوراً محورياً في نشر هذه القيم وترسيخها في النفوس، والإعلام والثقافة يمكنهما المساهمة في خلق وعي جماعي بأهميّة هذه المبادئ، والمؤسّسات الدينية والاجتماعية تتحمّل مسؤولية خاصّة في تطبيق هذه المبادئ وإعطاء القدوة الحسنة.

إذاً فنحن أمام آية عظيمة لا تعكس كونها نصاً دينياً وحسب، بل هي دستور حياة ومنهج عمل لكلّ من يريد أنْ يساهم في بناء عالم أفضل، فهي دعوة لكلّ إنسان بأنْ يبدأ بنفسه، فالتّغيير الحقيقيّ يبدأ من الدّاخل ومن ثمّ ينتشر إلى الخارج، ومن الفرد إلى الأسرة إلى المجتمع إلى العالم أجمع.

ففي عالم يبحث عن الحلول لمشكلاته المتفاقمة، فإنّ هذه الآية الكريمة منارة هداية تضيء الطريق نحو مستقبل أفضل للإنسانيّة جمعاء، فهي رسالة أمل وتفاؤل، رسالة تؤكّد بأنّ الحل موجود، وأنّ الطريق واضح، وما علينا سوى أنْ نسير عليه بإخلاص وعزيمة، وهذا السير يبدأ بقول اللّٰه تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} (الرعد: 11)، سير يرتبط بقانون إلهيّ وسنّة كونيّة جارية، تحكم صعود الأمم وهبوطها، وقوّتها وضعفها، سير بدايته تغيير الحال أوّلاً، والعمل على تغيير المجتمع ثانياً.. ففي تغيير النفس، بداية تحقيق للنصر الإلهيّ...وفي تغيير المجتمعات استثمار لمقدّرات الأمّم من طاقات معطّلة، وثروات مهدرة لوضعها في مصاف الأمم القائدة لا التابعة... فلو شئنا فرض أنفسنا على الخريطة العالمية، فنحن بحاجة أوّلاً لامتلاك قوّة العدل والإنتاج والعطاء الحضاريّ، لا قوّة القهر والبطش فهي ليست من قيمنا الإسلاميّة ولا العربيّة ولا الإنسانيّة، ويمكن تحقيق تلك القوّة من خلال التكامل الاقتصادي، والتنسيق السياسي، والتعاون العلمي، والترابط الأمني بين دول الوطن العربيّ جمعاء، ومن ثمّ فقد استلزم علينا أنْ نبدأ بالتفكير كأمّة واحدة لا أمّة مفكّكة، وأنْ نتوقّف عن استيراد الحلول من غيرنا، واستلهامها من هويّتنا وقيمنا الأصيلة ....